الاتحاد القومي

دواؤه وأدواؤه[1]

— ٢ —

تنبهت أمم أوربا منذ مئتي سنة وأكثر الى وجوب التخلي عن نعراتهم الدينية والطائفية وحصر تلك النعرات، وما بنيت عليه من عقيدة الدين ورسومه ورموزه ضمن نطاقها الطبيعي أي المعابد، وما يتصل بذلك عن قرب كعاملة رجال الدين والدور الاكليركية والأوقاف المنتمية اليها ونحو هذه الامور . وأما في ما خلاها ، وهو القسم الأكبر من مظاهر المعيشة وأحوال الحياة ، فقد أقاموا الرابطة الوطنية مقام تلك النعرات، وحمدوا كل الحمد مغبة هذا التعديل وهذا الاستبدال كما حصلوا عليه من راحة أيديهم وراحة بالهم وطيب عيشتهم في المدنية والرقي ومن معززة جانبهم ونيلهم الشيء الكثير من رفع مادي ومعنوي . أفلم يكفنا نحن انما تأخرنا في هذا السبيل بضعة مئتي سنة عن أمم أوربا ، وهم في الاصل تلاميذ وطلبنا رقيهم وتنورهم . تلاميذ هذا الشرق البائس وأبنائه عند احتكاك أجدادهم بأجدادنا في أثناء الحروب الصليبية بسورية ولبنان وفلسطين ، مدة تقارب مئتي سنة وكان منتهاها في نحو سنة ١٣٠٠ للميلاد . ثم باحتكاك الأجداد بالأجداد في بلاد الأندلس مدة ٧٥٠ سنة . وكان منتهاها في نحو سنة ١٤٧٠ للميلاد . وهذا التبدل المجيد المعقول بتغليب الرابطة الوطنية على كل رابطة سواها لم يقتصر على المشهور من أمم الغرب المبتدئة ذرة العلم والأدب والفلسفة والفن والصناعة، بل تجاوزه إلى أمة صغيرة غير عظيمة الحظ من هذه المزايا وهي مثلنا شرقية بتقاليدها ومشاربها وان حسبت أوروبية بموقع بلادها وأريد بها الأمة الالبانية أو الارناؤوطية . فان الالباني شديد الحرص والغيرة على رابطته الوطنية والقومية . قليل المبالاة بكل رابطة تخالفها . أفنكون عقولنا في استيعاب هذا الناموس العمراني دون عقول الارناؤوط عشاق الطبنجة والبطقان ؟ .

ان الغربة التي تحرم صاحبها قوته ومعززته بحرمانه الاستناد إلى أهله ومحبيه ومراجع تربيته ومواقع غبطته ، ومن ثم تجعله بعيداً عن الغرور والطمع والعدوان ، هي خير محك للمرء في استجلاء ميوله الطبيعية وفي استلهام وجدانه وغريزته . هذا شأن الغربة التي تصفي

النفس البشرية من كثير من أكدارها وأقذارها وتوسع نطاق معلوماتها عند اطلاعها على أشياء جمة كانت محتجبة عنها. استفتوا الغربة ومن يقاسون كربتها ووحشتها في ما نحن بصدده يخبركم كل مغترب مهاجر، وأنا كنت أحدهم، ان عاطفة الحب الوطني في أعماق نفسه تقتفض من تحت رمادها، وتنتعش بارعاويطمع نورها أضعاف ما كانت عليه، فيعلم حينئذٍ علم اليقين ان الرابطة الوطنية ليس من رابطة تماثلها أو تقاربها في صوميات الحياة، حتى إذا لقي أحد أبناء وطنه ولو لم يكن من عشيرته وأشكاله، شمله برده وعطفه، وبذل مجهوده في إرضائه ونفعه.

ولا شك ان الذي أسلفنا ذكره من شأن النعرات الطائفية وتقاليدها بحسب العائق الأعظم في سبيل اتحادنا الوطني الذي هو شرط أساسي لا بد منه لأجل استحقاقنا الاستقلال وانتفاعنا به واطمئناننا عليه. ولكن لا بدَّ لي من الاعتراف بأنه يعترض اتحادنا الوطني مع هذا العائق الأعظم عوائق أخرى لا يجوز غض النظر عنها وان كانت دونه سطوةً وتأثيراً ولاسيما عائقان منها. أولاً: ما تعوَّده أبناء الطائفتين في بلادنا من تفرقة وانقسام في مظاهر المعيشة من مساكنة ومعاشرة ومجالس لهو يومية واجتماعات مختلفة ونحو ذلك. فقد تعوَّدوا ان ينحي بعضهم عن بعض في معظم هذه الأحوال. وضرورة الاتحاد تقضي بإنهاء هذه الألفة. وإنهاء الألفة يقضي بإبطال هذا التنحي، وإقامة التمازج الكافي مقامه. والعائق الثاني: حرص أفراد من أبناء وطننا على ابقاء النعرات الطائفية بيننا مع ما فيها من عار ومضار وسعيهم في تحقيق هذه الأمنية، لأنهم يترقبون اذا فقدوها أن يفقدوا جل ما لهم من حول وطول ونعمى. وهؤلاء الأفراد أتباع وأعوان بنصرتهم وأناس بسطاء تجوز عليهم حججهم الزائفة. ولكن ينتظر أن يكون بين هذه الفئات أصحاب فضل وفضيلة يرضون أن يضحوا بشيء من مصلحتهم الخصوصية في سبيل مصلحة الوطن العامة. وأما الباقون فلا بدَّ من اجتذابهم الى السبيل السوي بالتي هي أحسن، وإلاَّ فبالتي هي أخشن ....

وصلت الآن إلى شرط جوهري لا يقل في شيء شأنه عما تقدم معنا بيانه. وهذا الشرط هو أن يحذر أحرار العرب في بلادنا آلامهم بقومياتهم وممن يترأسون هذه القومية ومن ينضوون تحت لوائها. حين يرون منهم اخلاصاً وروحاً وطنية نزيهة لا تميل أقل تمييز بين فئات الوطن. ويدخل في هذه الناحية من بحثنا الخاطر الأبيات التالية من قصيدة لي نظمتها في مقام اقتضاها ولعلَّ المقام الحاضر أجدر بها من ذاك:

وطنية الشهم الكريم يمينه ويقينه ولو اللئيم ارتابا
وطنيـــة الشهم الكريم نخاره وانضاره من دمه فقر نابا

وطنية الشهم الكريم أصونه من أن يضيع الهم والأدابا
فهو الذي يعطي القريب حسابه وهو الذي يعطي الغريب حسابا
يدري لهذا حقه في أرضه ولذاك حق الضيف يقرع بابا
لا تظهروا بالحزم ضعفاً لا ولا بالعزم عنفاً جائراً صخابا
هذي هي الوطنية المثلى التي تبغي رجالاً لم تكن أنصابا
هذي هي الوطنية المثلى التي تروي القلوب وتبرىء الأوصابا

***

ولا بد لنا هنا من التصدي لملاحظة تخطر على بال كثيرين ومؤداها ان الطائفة الاسلامية في بلادنا هي اكبر الطوائف الدينية وأقواها ، فلا غرو ان يكون لها حق التصدر والامتياز في كل أمر من أمورنا وكل حالة من أحوالنا .

والجواب على هذه الملاحظة إيجابي محض . فالطائفة الاسلامية هي أكبر وأعظم طوائف هذا الوطن فلها حق الصدارة والامتياز . وهي حاصلة اليوم على هذا الحق بكيانها المعنوي في التعيينات والانتخابات والتشريفات وغير ذلك من مظاهر رسمية وشبه رسمية ما دمنا جارين في هذه الأمور على النسبة الطائفية ، وهو مجرى خطر فسيح مخجل كما تقدم معنا بيانه. والأمل ان نتخلص من هذه الخطة في أقرب وقت . وهيهات ان يفقد اخواننا المسلمون شيئاً اذا فقد من بيننا هذا التدبير الوبيل . فان لهم من كثرة عددهم وكثرة أهل العلم والفهم فيهم ونشاطهم ونضج تجاربهم واختباراتهم ، ما يصون حقوق افرادهم كل الصيانة ، فيظل بجموع ما يحرزونه فوق كل مجموع آخر ، ويظل لممثلي الدين بينهم حق التقدم في المواقف والأحوال التي لها علاقة طبيعية بالدين والطائفة ، دون ان تسطو على ما هو خارج عن هذه العلاقة مما نشاهده في خططنا الحاضرة .

إلاّ ان المسلمين والنصارى اذا ألغوا من بينهم قاعدة النسبة الطائفية في الاعمال والمعاملات فهم لا يفقدون إلاّ شيئاً واحداً . أتعلمون ما ذلك الشيء أيها السادة والاخوان ؟ انهم يفقدون حينئذٍ الخطر الداهم على جسم وطنهم الشريف وروحه الطاهرة .

الخواجه مرقص
عضو المجمع العلمي العربي